ملتقطات

أعيد من حينٍ إلى آخر قراءة الأغاني ، هذا الكتاب العظيم الذي لا يكاد المرء يشبع من تقليب النظر فيه ، وإذا كنت في هذا المقال أجاوز ما يشتمل عليه من جدّ وهزل أو من آثارٍ وأخبار وسيرٍ وأشعار متصلةٍ بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام فانني لا أجاوز بعض ما أمرّ به من ملتقطات في اللغة تدلّ على سعة هذه اللغة ومرونتها ومن طائفة من الألفاظ التاريخية أو الألفاظ التي ماتت بموت عصرها أو من فئةٍ من بقايا الفصاح أو من استعمال بعض الألفاظ العامية وما شابه هذه الأمور كلّها .

من قبائل العرب : الذُهلان واللهازم ، وقد جاءت الإشارة اليهما في شعر الفرزدق :

وأرضى بحكم الحيّ بكر بن وائلٍ إذا كان في الذُهْلين أو في اللهازم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما يهمني في هـذا المقام تفصيل الكلام على هاتين القبيلتين وإنما المهمّ الإشارة إلى واحدةٍ منها وهي اللهازم ، وليست هذه الإشارة من باب الكلام على النسب وإنما هي إشارة لغوية لا غير ، جاء في الأغاني في أخبـــار أبي كلدة ونسبه ما يلي : « فلمّا جاء الإسلام ونزل الناس مع بني حنيفة ومع بني عجل بن لجيم فتلهزموا ودخل معهم حلفاؤهم ... » .

فقوله : تلهزموا معناه انتسبوا إلى قبيلة اللهازم أو تشبهوا بها ، وقد نجد في هذا الباب طرائف كثيرة ، فكما اشتقّوا من القبائل مادّة تفصح عن الانتساب إليها أو التشبه بها فكذلك اشتقوا من أسماء الأعـــلام والبلدان والحيوان أشباه هذه المادة . ورد في أخبار ابن سريج على لسان اسحق بن ابراهيم الموصلي ما يلي :

« هذا صوت قد تمعبد فيه ابن سريج ، فقال له : ما ظننت أنك يا أبا محمد مع علمك وتقدمك تقول مثل هذا في ابن سريج ، فكيف يجوز أن تقول : تمعبد ابن سريج وإنما معبد إذا أحسن قال : أصبحت سريجياً . »

فقوله : تمعبد يدلّ على التشبه بمعبد في الغناء ، ومن هذا النحو ما ورد في أخبار عبيدة الطنبورية ، فقد كان اسحق بن ابراهيم بن مصعب يشتهي أن يسمعها ويمنع نفسه ذلك لتيهه ولبرمكته وتوقيه أن يبلغ المعتصم عنه شيء يعيبه ... فالبرمكة في هذا المقام إشارة إلى بَرْمك جدّ يحيى بن خالد البرمكي وهم البرامكة .

أمّا البلدان فقد قالوا في الانتساب إلى بعضها : تبغدد فلان إذا انتسب إلى بغداد أو تشبّه بأهلها .

وقد اقتصر في التشبه بالحيوان على مادّة وردت في أخبار ابن هرمة ونسبه ، جاء في خلال هذه الأخبار ما يلي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« فلما رأى عبد الله تضاءل وتقنفذ وتصاغر وأسرع المشي ... فلا شك في أن تقنفذ معناها تشبه بالقنفذ في مشيته أو وضعه وغير بعيدٍ أن « تقنبذ » العامية أصلها « تقنفذ » الفصيحة وقد حرّفوها فجعلوا الفاء باءً إلاّ أن بين المعنيين ، العامي والفصيح ، شيئاً من التباعد ، فان تقنفذ الفصيحة تدلّ على التضاؤل والتصاغر في العبارة التي جاءت في الأغاني ، أمّا « تقنبذ » العامية فان لها في لغة العامة في دمشق معنى آخر ، فان قولهم : فلان « متقنبذ » معناه أن له جلسة خاصة أو مشية خاصة أو وضعاً خاصاً فيه التصدّر أو الترفّع أو التكلف مما يحمل على السخرية . أمّا في اللغة فانهم يقولون : تقنفذه بالعصا ضربه كما يضرب القنفذ .

وكما اشتقوا من القنفذ مادّة فقد اشتقوا من النمر مادّة فقالوا : تنمّر فلان اذا غضب وساء خلقه ... وهذا باب طويل لا سبيل الى التوسع فيه في هذا المقال ، من كل ما تقدّم يتبيّن لنا مقدار سعة اللغة ، فقد رزقنا الله تعالى لغةً لا تجمد على حالٍ من الأحوال ، يتصرّف فيهـــا أبناؤها كل متصرّف ، ولكن لا يجوز لنا الغلوّ في هذا التصرّف ، اني أعيش في قريةٍ من قرى الزبداني ، فأسمع أهلها في هذا الشهر الذي أكتب فيه هذا المقال وهو تشرين الثاني يقولون : تَشْرَنَتْ أي دخل الشجر في تشرين فاصفرّ ورقه وتناثر على الأرض ، ويقولون : شرّط بيني وبينك ، بتشديد الراء ، أي مدّ الشريط بين أرضي وأرضك وإذا كانت لفظة التشريط فصيحة ، والشريط هو الخوص المفتول الذي يشرّط به السرير ونحوه فان أختها التي ذكرتها : تَشْرَنَتْ عامية ، وعلى ما به لا يجوز لنا أن يستعمل كل واحدٍ منّا حريته في التصرف في أمور الاشتقاق ونحوه فيغلو ويفرط وإلاّ دخل الضيم على اللغة فأصبحت فوضى ، فاذا تصرف كل واحدٍ منّا في الألفاظ على مشيئته وهواه فلست أدري حينئذٍ عاقبة هذا الأمر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن مظاهر سعة اللغة وخصائص مرونتها مادّة جاءت في أخبار ابراهيم الموصلي على لسان مخارق ، قال مخارق :

« فجئت الى ابراهيم الموصلي ، فاذا الباب مفتوح والدهليز قد كنس والبوّاب قاعد ، فقلت : ما خبر أستاذي ، فقال : ادخل ، فدخلت ، فاذا هو جالس في رواقٍ له وبين يديه قدور تغرغر وأباريق تزهر والستارة منصوبة والجواري خلفها ، وإذا قدّامه طست فيه رطلية وكوز وكأس ...

فالذي يعنينا من هذا الخبر إنما هو لفظ الرطلية ، ولا شك في أن معناها الإناء الذي يسع رطلاً من النبيذ ونحوه ، وهكذا نجد أنهم وضعوا للفظة الرطل لفظة الرطلية التي تسع هـــذا الرطل ، وهي أدق من الإناء أو الوعاء ، فالإناء عام والرطلية خاصة والتخصيص من شروط الدقة في مفردات اللغة .

والى جنب هذا النوع من التصرف والمرونة نجد ألفاظاً اصطلح علماء اللغة على أن يسمّوها : الألفاظ التاريخية ، وهم يريدون بذلك أسماءً كانت تدلّ في عصرٍ من العصور على مسمّياتٍ ، ثم ذهب العصر وذهبت معه المسمّيات فبقيت الأسماء وحدها ، من هذا القبيل ما ورد في أخبـــار علوية ونسبه :

« وقدم المأمون من خراسان وكان يخرج الى الشمّاسية دائماً يتنزّه ، فركب في زلاّل وجئت أتبعه فرأيت حرّاقة علي بن هشام ، فقلت للملاّح : اطرح زلاّلي على الحرّاقة ففعل ... » .

إن قوله : فركب في زلاّل ، يدلّنا على أن الزلال نوع من المراكب ولم أجد له تفسيراً في القاموس المحيط ، أمّا الحرّاقة فقد ورد تفسيرها ، فمن معـاني الحرّاقات مشدّدةً سفن بالبصرة ، وفيها مرامي نيرانٍ يُرمى بها العدوّ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكثيراً ما ورد ذكر الحرّاقات في الأغاني ، من ذلك ما قاله هبة الله ابن ابراهيم المهدي : « اتخذ أبي حرّاقة فأمر بشدّها في الجانب الغربي بحذاء داره ، فمضيت اليها ليلة ، فكان أبي يخاطبنا من داره بأمره ونهيه فنسمعه وبيننا عرض دجلة وما أجهد نفسه . » .

وكذلك ورد ذكر الزلاّلات ، قال أبو العتاهيـــة :

« كان الرشيد يعجبه غناء الملاّحين في الزلاّلات اذا ركبها ، وكان يتأذّى بفساد كلامهم ولحنهم . » .

من هذا كله يتبيّن لنا أن الحرّاقات والزلاّلات كانت مراكب لخلفاء بني العبّاس يتنزّهون عليها في دجلة على نحو الذهبيات في النيـــل . وسواء أجاء في القاموس المحيط تفسير للزلال والحرّاقة أم لم يجـــيء انّا لا نعرف صورتها ولا نعرف عنها شيئاً ، فان هاتين المادّتين من الألفـاظ التاريخية التي ذهبت بذهاب عصرها ، وهذا هو السبب في أن معاني الألفاظ التاريخية غامضة في معظم الأحوال لأنّا لا نعرف عنها شيئاً ولا نستطيع أن نتصوّرها .

واذا كانت طائفة من الأسماء تذهب عنّا معانيها لذهاب مسمّياتها فان طائفة ثانية من الألفاظ تظهر في عصر من العصور ثم تموت ، من ذلك ما جاء في أخبار علوية في حكاية طريفة لا سبيل الى ذكرها كلها ، فقد وردت في هذه الحكاية العبارة الآتية :

« وعمل له علوية حكاية أعطاها للزفّانين والمخنّثين فأحرجوه فيها ... »

في اللغة زفَن يزفِن رقص ، فالزفّان الرقّاص ، ولكن هذه المادّة لم يبق لها أثر في لغة هذا العصر ، فمن الذي يقول الزفّان بدلاً من الرقّاص ، فلكل عصرٍ لغة ، فكثير من الألفاظ تموت بموت العصر الذي شاعت فيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الألفاظ التي ماتت على ما أعتقد لفظ الأَبْزَن الذي جاء في أخبار ابراهيم الموصلي ، قال علوية الأعسر :

« دخلت على ابراهيم الموصلي في علّته التي توفّي فيها وهو في الأَبزن وبه القولنج الذي مات فيه ... » .

فالأَبزن ، مثلثة الأول حوض يُغتسل فيه وقد يتخذ من نحاس ، معرَّب : أَبْ زَنْ ، وأهل مكة يقولون : بازان للأبزن الذي يأتي اليه ماء العين عند الصفا يريدون : آب زَنْ .. فمن الذي يستعمل في هذا العصر : الأبزن بدلاً من المغطس .

واذا كانت فئة من الألفاظ تموت بموت عصرها فانّ فئة ثانية منهـــا تعيش في كل العصور ، فهي من بقايا الفصاح ، فعلى الرغم من غلبة أُمم شتى على أرضنا في مواضي الليالي وعلى الرغم من منازعة لغة تلك الأمم للغتنا بقيت في لغة العامّة فضلاً عن الخاصّة ألفاظ وتراكيب فصيحة تدلّنا على قوة لغتنا وعلى غلبتها على اللغات التي نازعتها .

من هذا النوع من بقايا الفصاح طوائف كثيرة لا يتسع المجال للاستقصاء فيها وانما أقتصر على يسير منها .

جاء في أخبار ابراهيم الموصلي ما يلي : ثم بكرت على الفضل بن يحيى ، فاذا هو جالس وحده ، فلمّا نظر اليَّ ضحك ثم قال لي : يا ضيّق الحوصلة ! حرمت نفسك عشرين ألف دينار .... وهذا التعبير نفسه لا يزال مستفيضاً في لغة العامّة يومنا هذا ، إلاّ أنهم حرّفوا الحوصلة وجعلوها الحوصليّة فقالوا : فلان حوصليته ضيّقة ، وهم يريدون بذلك ضيق صدره وقلة صبره .

ومن هذا الشكل قولنا : رأساً برأس فاننّا نجد في أخبار سياط ما يلي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« دخل ابن جامع على سياط وقد نزل به الموت ، فقال له : ألك حاجة ، فقال : نعم ، لا تزد في غنائي شيئاً ولا تنقص منه ، دعه رأساً برأس ، فانما هو ثمانية عشر صوتاً ...

أفلا نسمع هذا التعبير في عاميتنا كل يوم ، وقد فسّر في العبارة المتقدمة أوضح تفسير .

ومن طرائف الأمور أن نعرف في عصرنا هذا شيئاً من لغة العامة في عصر ابراهيم الموصلي ، فقد كان ابراهيم اذا سكر كثيراً ما يغنّي على سبيل الولع :

أنا جت من طرق موصل أحمل قلل خمريا
من شارب المـــلوك فلا بدّ من سكريا

لا يهمّنا أن يشكّ صاحب الأغاني في هذه الحكاية ، فقد ذكرها على غثاثتها لشهرتها عند الناس ، وانما الذي يهمنا شيوع هذا النحو من العامية في أيّام ابراهيم الموصلي .

وأخيراً بقيت الإشارة الى بعض ألفاظٍ استعملت في عصرٍ ثم بدّلت في عصرٍ آخر ، إلاّ أنها لم تمت كما مات غيرها فهي لا تشبه لفظ الأبزن الذي تقدم ذكره ، إنهم يقولون اليوم في رجال الفن : هذا محترف وهذا هاوٍ وفي اللغة هويه كرضيه فهو هوٍ ، وقديماً لم يستعملوا هاتين المادتين فقد كانوا يقولون : هذا متكسّب وهذا ملتذّ ، ففي حكاية طويلة على لسان جدّ حمّاد ما يلي :

فأقمت على تلك الحال حتى بلغ محمد بن سليمان بن علي خبري ، فوجّه إليّ فأحضرني وأمرني بملازمته فقلت له : أيّها الأمير ، لست أتكسّب بالغناء وإنما ألتذّه ... » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالمتكسب لم تمت وإنما قامت مقامها : المحترف في لغة هذا العصر ، وكذلك الملتذّ فقد قامت مقامها : الهاوي ، وهذا دليل على انتقال اللغة من وجهٍ الى وجه على تراخي الأيّام .

ومن هذا النمط لفظة : الممتحنة ، فنحن نقول في عصرنا : الهيأة الفاحصة الذين يتولّون امتحان الطلاّب ولكنهم كانوا يقولون في القديم : الممتحنة ، وقد وردت هذه المادة في خبر أساقفة نجران مع النبي ﷺ :

« فصاحوا بهم : انزلوا يا اخوة القرود والخنازير ! فنزلوا إليهم ، فقالوا لهم : هذا الرجل عندكم منذ كذا وكذا سنة ، أحضروا الممتحنة غداً . . . »

★ ★ ★

هذا قليل مما التقطته من الألفاظ في قراءة بعض الأغاني ، وهو غيض من فيض ، وإذا أردت أن أجد صفة للغتنا فاني لا أجد أصلح من الصفة التي كان يصفها بها إمام من أئمة القرن التاسع عشر وأعني به الشدياق ، فلم يأت ذكر اللغة في خلال كتاباته إلاّ قال : لغتنا الشريفة .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net